الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ودراسة الفن واللغة والأدب

تحليل ببليوجرافى (حصاد القرن العشرين)

أ.د. محمود عبد الرشيد*

تمهيد :

الهدف من هذا البحث هو تقديم فكرة عن الكتب والمقالات والبحوث والدراسات التي أعدها أو نشرها باحثون مصريون في مجال فرع "علم الاجتماع الأدب" حتى نهاية القرن العشرين أي حتى سنة ٢٠٠٠. وستتم الإشارة أيضًا إلى بعض الأعمال التي أنجزها باحثون عرب، حيث إن الغرض العام لهذا الفصل هو تعريف القارئ بالتراث المتاح باللغة العربية والذي يدخل في صميم مجال علم الاجتماع الأدب.

ما علم الاجتماع الأدب :

علم الاجتماع الأدب أو علم اجتماع الأدب أو سوسيولوجيا الأدب ... هي عبارات ثلاث تستخدم بالتبادل للتعبير عن نفس الشيء، وهو ذلك الفرع من فروع علم الاجتماع Sociology الذي يدرس الأدب كظاهرة اجتماعية.

وعلم الاجتماع هو نفسه واحد من مجموعة من العلوم التي يطلق عليها "العلوم الإنسانية Human Sciences وهي مجموعة كبيرة تدرس الظواهر الواقعية المرتبطة بحياة الإنسان ومنها أيضًا علم النفس والاقتصاد وعلم السياسة والتاريخ والأنثروبولوجيا وغيرها وعادة ما يتم التمييز بين هذه المجموعة وبين "العلوم الطبيعية" والتي تدرس ظواهر واقعية طبيعية مثل علم الكيمياء والفيزياء والأحياء .. وغيرها.

ويطلق على كلا المجموعتين (الطبيعة والإنسانية) علوم رغم اختلافات الظواهر التي تدرسها، على أساس أن العلوم تُعرف بمنهجها العلمي وليس بموضوعاتها. فالوحدة بين جميع العلوم تكمن في وحدة المنهج وليس وحدة الموضوع الذي تدرسه وتبحث فيه.

---

* أستاذ علم الاجتماع، كلية الآداب – جامعة المنيا.

علم الاجتماع إذن هو العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعية، أي الظواهر التي نشأت من خلال وجود الناس معًا، وتفاعلهم في حياتهم الاجتماعية. وأبسط تعريف للظواهر الاجتماعية هو تعريف إميل دوركيم عالم الاجتماع الفرنسي الذي أوضح أن الظواهر الاجتماعية هي :

"**قوالب وأنماط من السلوك أو الفكر تنتشر في جماعة أو مجتمع معين**".

ومعنى هذا التعريف هو أن سلوك أي فرد في مجتمع معين يعد علامة على ظاهرة اجتماعية معينة. ولكنه يصبح ظاهرة اجتماعية حينما يمارسه غالبية أعضاء الجماعة أو المجتمع بطرق متشابهة ومتعارف عليها بين أعضاء الجماعة أو المجتمع.

وقد يقول البعض أن سلوك الأفراد وتصرفاتهم هي وقائع منظورة وبالتالي يمكن اعتبار مجموعها وقائع أو ظواهر يمكن ملاحظتها وجمع بيانات دقيقة عنها مثلما يفعل الباحث العلمي عند دراسته ظاهرة طبيعية معينة .. فهل أفكار الأفراد ومشاعرهم تعتبر هي الأخرى ظواهر اجتماعية يمكن دراستها علميًا؟

إن علم الاجتماع هو العلم الذي يدرس المجتمع فيصف ويفسر وجود أو تغير أو اختفاء الظواهر الاجتماعية. فكل سلوك أو فكرة أو شعور أو تصور ينتشر بين أعضاء مجتمع معين يمثل ظاهرة اجتماعية يمكن لعلم الاجتماع دراستها علميًا أي تطبيق خطوات وأساليب المنهج العلمي في دراستها.

إن الظواهر الاجتماعية توجد في صورة أفعال وأفكار ومشاعر متكررة ونمطية عند غالبية أعضاء جماعة معينة أو مجتمع معين، وهي تتخذ طابعًا اقتصاديًا أو سياسيًا أو دينيًا أو بيئيًا ... إلخ. وعلى هذا الأساس فإن علم الاجتماع الذي يدرس المجتمع في عمومه تطور وظهرت له فروع متخصصة مثل علم الاجتماع الاقتصادي، وعلم الاجتماع السياسي، وعلم الاجتماع الديني، وعلم الاجتماع البيئي ... الخ. إذ أن كل فرع من فروع علم الاجتماع ظهر ليدرس الظواهر الاجتماعية الناشئة في جانب من جوانب حياة الناس، في علاقتها ببقية الجوانب، فعلم الاجتماع الديني يدرس الجوانب الاجتماعية التي تؤثر في الدين والتي تتأثر به في المجتمع .. وهكذا.

إن علم الاجتماع الأدب هو أيضًا فرع من فروع علم الاجتماع يدرس الظواهر الأدبية أو الظواهر الاجتماعية في الأدب وتأثيرها في بقية جوانب وظواهر المجتمع، وتأثرها بها.

إن علم اجتماع الأدب يستند في وجوده على القول بأن "الأدب" ظاهرة اجتماعية" تؤثر في بقية حياة المجتمع وتتأثر بها.

ولما كان الأدب (الأعمال الأدبية) مُنتج أو ناتج تعبيري باستخدام الكلمات والعبارات، ولما كان أصحاب الأعمال الأدبية ليسوا من الكثرة في أي مجتمع، كما أن البعض يرى أنهم متفردون لكل منهم سلوكه وأفكاره وتعبيراته وطريقته في إنتاج الأعمال الأدبية، فإن البعض قد يجادل بأن الأدب ليس ظاهرة اجتماعية، وبالتالي فلا حاجة لنا لما يسمى "علم اجتماع الأدب" فهل هذا الجدل في موضعه وله مبرر؟

إن الأدب ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة، فلا يوجد مجتمع قديمًا أو حديثًا دون أن يوجد فيه من يستخدمون لغة مجتمعهم في إبداع نصوص تتميز بقوة المعنى وجمال التعبير سواء في صورة كلمات أو عبارات أو جمل وفقرات أو حوارات أو قصص وسير شعبية وروايات. إن جميع المجتمعات تمارس سلوكيات تذوق جمال التعبير اللغوي في ذاته. وهناك من يبدعوا نصوص الأدب وهناك من يتذوقوها، ويستخدموها، وينقدوها. فكل المجتمعات تنتج أدبًا أي نصوص تتمتع بجمال التعبير اللغوي قصدًا، وقد يكون هذا الأدب شفاهي أو مكتوب، وقد يكون أدبًا شعبيًا مجهول الشخص الذي أنتجه وبالتالي فصاحبه هو الشعب كله، وقد يكون أدبًا لأديب معلوم ومعروف ... المهم أن للشعوب نصوص أدبية قد تختلف من مجتمع لآخر في أنواعها ولغتها وبلاغتها وحجم نصوصها ... ولكن لكل شعب أدب، وكل مجتمع به عملية تذوق للأدب، فالأدب ظاهرة اجتماعية.

وعلم اجتماع الأدب يدرس الظواهر الأدبية فيدرس الأدباء والقرّاء والنقاد والناشرين والموزعين للأعمال الأدبية كفئات اجتماعية تؤثر في وتتأثر ببقية الفئات والأوضاع في المجتمع. ويدرس علم اجتماع الأدب كل الظواهر الجزئية المنبثقة عن المنظومة الكبيرة التي تسمى "الأدب" ومن ذلك تطور ظهور أو تغير أو غياب أنواع معينة من الأعمال الأدبية كالمثل الشعبي والطرفة والحكمة والسيرة الشعبية والزجل والشعر والقصة والرواية والمسرحية وغيرها. وقد يدرس عملية "إبداع أو إنتاج الأدب كعملية اجتماعية، أو يدرس المؤسسات الأدبية أو علاقة الأدب بالسياسة والاقتصاد والدين والعلم ... إلخ.

إن علم اجتماع الأدب ليس "الأدب". فالأدب هو موضوع أو موضع الدراسة العلمية الاجتماعية التي يقوم بها المتخصص في علم اجتماع الأدب، مع تركيزه على الأدب كظاهرة اجتماعية يتم تفسيرها في علاقتها ببقية جوانب الحياة الاجتماعية بغض النظر عن كون

الأعمال الأدبية أعمالاً إبداعية فردية غير نمطية. فهل ننكر أن هناك علاقة تأثير وتأثر بين الأديب المصري نجيب محفوظ (الذي فاز بجائزة نوبل العالمية) وبين بقية جوانب الحياة في مجتمعنا المصري الذي تربى فيه وتعلم ممارسة الأدب وأبدع رواياته وطبعها ونشرها ... إلخ؟

هذا ويمكن اعتبار الأدب والفن ميدانين قريبين فهما سلوكيات تعبيرية جمالية يحتاجها كل مجتمع. فالأدب يعتبر فنًا، وأداة تعبيره اللفظ واللغة، بينما هناك فنون أخرى منها ما هو فن حركي (أداة تعبيره هي الحركة) مثل الرقص حيث أداته حركة الجسم، والغناء وأداته الصوت، والموسيقى وأداتها الإشارات والرموز المعروفة بالسلم الموسيقي، والعمارة وأداتها النسب والخطوط، والتصوير وأداته التظليل، والنحت وأداته الحجر أو الخشب أو العاج، والرسم وأداته الألوان ... إن الآداب والفنون جميعًا منتجات تعبيرية تمثل وتشبع حاجة إنسانية وتظهر وتتغير في صورة ظواهر اجتماعية. وكما أن هناك فرعا من علم الاجتماع هو علم اجتماع الأدب، فإن هناك فرعا هو "علم اجتماع الفن". وقد سبق عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركيم (١٨٥٨–١٩١٧) الكثيرين حينما أطلق عليه مفهوم "علم اجتماع الجمال أو علم اجتماع الجمالي ... فعلم اجتماع الجمالي يدرس التذوق الجمالي في المجتمعات سواء كان ذلك يتعلق بإنتاج الأعمال الأدبية أو الفنية، أو بالعملية الاجتماعية الواسعة لتذوقها، أو حتى بموقف المجتمعات من التذوق الجمالي عمومًا. إن التذوق الجمالي ليس عملية فردية موروثة بيولوجيًا، أو موجودة كصفة فطرية يولد بها الإنسان وكفى، بل إنها عملية اجتماعية تتأثر بعمق، بثقافة المجتمع، وتؤثر فيها. إن علم اجتماع الجمالي يدرس عمليات إنتاج وتذوق الأدب، كما يدرس عمليات إنتاج وتذوق الفنون، ولكن أسماء الفروع هنا تغلبت على أسماء الأصول وصار الفرع الأكثر شيوعًا من فروع علم الاجتماع ليس علم اجتماع الجمالي، وإنما علم اجتماع الأدب، وعلم اجتماع الفن.

علم اجتماع الأدب في مصر :

يؤرخ بعض علماء الاجتماع لنشأة علم الاجتماع في مصر مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين (أي عام ١٩٢٤) على أساس بداية الجامعة (جامعة القاهرة الآن)، علمًا بأن

جامعة الأزهر تعتبر من أقدم المؤسسات التعليمية في العالم باعتبار التدريس في الجامع الأزهر كان على مستوى جامعي)، وبذلك يكون عمر علم الاجتماع في مصر يقل عن مائة عام. لكن علم الاجتماع نفسه على مستوى العالم يؤرخ له ببدء دعوة أوجست كونت لتأسيس علم لدراسة الظواهر الاجتماعية، وهو الذي أطلق عليه اسم علم الاجتماع "Sociology". وهكذا يكون علم الاجتماع في مصر قد بدأ متأخرا عن بدايته في العالم بما يزيد عن المائة عام.

ومن الإنصاف أن نقول أن دعوة كونت لتأسيس هذا العلم (علم الاجتماع) لم تكن هي الأقدم تاريخيًا، حيث أن العلامة العربي عبد الرحمن ابن خلدون (من أصل يمني وولد وتربى في منطقة تونس الحالية، وتنقل بين الأمصار العربية حتى استقر به الحال في مصر ومات ودفن فيها، هو أول صاحب دعوة واعية لتأسيس هذا العلم وقد أطلق عليه علم العمران البشري، ولكن دعوته وقتها كانت سابقة للعصر فلم تلق قبولاً). (ولد ابن خلدون عام ١٣٣٢ وتوفى عام ١٤٠٦) وقد سبق ابن خلدون أوجست كونت بما يزيد على ٣٠٠ سنة.

ومنذ نشأة علم الاجتماع الحديث في مصر بدأ الباحثون المصريون يؤصلون له ويقدمون أعمالاً باللغة العربية حتى تتضح طبيعة وطريقة هذا العلم في النظر إلى الظواهر الاجتماعية. وقد حرص الجيل الأول على تأليف الكتب التي تنقل أفكار وخبرات الغرب (أوربا وأمريكا) عن هذا العلم وطبيعته وطريقته وأهدافه وما أنتجه من بحوث اجتماعية. وشيئًا فشيئًا كتب الجيل الأول من المتخصصين في علم الاجتماع مقالات وكتباً وأجروا بحوثاً في علم الاجتماع، وأخذوا يكتبون عن فروع هذا العلم. وكان فرع علم اجتماع الأدب واحدًا من هذه الفروع الحديثة .. فمن كتب عنه؟ وماذا كتب؟ ومتى كتب؟ ومن أين نتعرف على كتابات علماء الاجتماع المصريين في علم اجتماع الأدب؟

مصادر البيانات عن تراث علم اجتماع الأدب في مصر :

عملية الكتابة نفسها ظاهرة اجتماعية تطورت بتطور المجتمعات الإنسانية. والكتابة ليست مجرد نزوة كاتب، فقد طورت المجتمعات طرقاً وأنشأت مؤسسات ونظماً، ووضعت قوانين وتشريعات تنظم الكتابة أو التأليف والنشر والتوزيع، وحقوق المؤلفين، وواجبات

المقتبسين أو الدارسين للمؤلفات ... وغيرها. ولا يتسع المجال لشرح كل ذلك. ولكن البعض من الشباب الناشئ قد يسأل عن أماكن التعرف على المؤلفات التي كتبها السابقون في فرع من فروع المعرفة. وفي حالة التعرف على ما سبقت كتابته ونشره في مجال علم اجتماع الأدب فإن هناك طرقاً متنوعة منها التردد على المكتبات العامة والخاصة والمتخصصة، ومتابعة ما يتم نشره من مقالات وبحوث وكتب في الجرائد أو المجلات الثقافية والعلمية، أو ما يتم الإعلان عنه من قوائم المؤلفات المنشورة، أو حتى الحصول مباشرة على نسخ من تلك المؤلفات.

وقد تطور الحال في المجتمعات حتى أصبح هناك تخصص علمي يهتم بجمع قوائم الأعمال المؤلفة أو حتى المترجمة، وتقارير الأبحاث والإحصاءات وغيرها، ويتم وضع هذه القائمة في صورة كتاب يُعرف باسم "الببليوجرافيا" أي الكتاب الذي يتضمن عرضًا لعناوين كتب في مجال معين. وفي بعض الحالات تتضمن تلك الببليوجرافيا بعض التفاصيل الموجزة عن فكرة كل عمل مع تحديد توثيق هذا العمل – أي ذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب، ودار نشره، ومدينة النشر، وسنة النشر ... وغيره .

وقد حاول الباحث هنا الرجوع إلى واحدة من أهم وأضخم وأشمل ببليوجرافيا في مجال ما تم نشره من مؤلفات في علم الاجتماع حتى الآن. وقد جاءت تلك الببليوجرافيا تحت عنوان "الملخصات السوسيولوجية العربية. وهناك عدد ١٢ مجلداً من هذه الببليوجرافيا، وهي تتضمن كل ما تمت كتابته في هذا المجال خلال عمر علم الاجتماع في مصر والعالم العربي وحتى عام ٢٠٠٠. ولذلك فإن هذه المجلدات تتضمن ملخصًا لكل عمل عربي – أمكن الحصول عليه – بواسطة فريق ضخم من الباحثين الذين بذلوا جهدًا جبارًا ولمدة طويلة حتى أمكنهم جمع وتلخيص هذا الكم من الأعمال التي زادت عن عشرة آلاف عملٍ.

وتقتضي الأمانة العلمية أن نؤكد على أن ما ورد من أعمال في هذه المجلدات لم يمثل جميع الأعمال التي تم إنجازها في مجال علم الاجتماع باللغة العربية، فهناك أعمال أخرى مهمة لم ترد في هذه الببليوجرافيا. وقد تضمنت الأعمال عددًا كبيرًا من رسائل الماجستير والدكتوراه غير المشورة، ولكنها لم تتضمن الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية من لغات أخرى. وبالرغم من كل هذا فإن ما ورد من أعمال في الببليوجرافيا بجميع مجلداتها يعد معبّرًا عن حالة الإنتاج العربي في علم الاجتماع خلال القرن العشرين.

المنهج المستخدم في جمع وعرض الأعمال :

لقد تم حصر جميع الأعمال التي وردت في جميع هذه المجلدات، والتي تم تصنيفها تحت باب الأدب والمجتمع، "علم اجتماع الأدب".

وقد تم تصنيف الأعمال التي تم تأليفها في الدراسة الاجتماعية للغة واللهجات العامة، كما تم تصنيف الأعمال التي تم تأليفها تحت عنوان الأنثروبولوجيا اللغوية، وعلم اجتماع الفن وبعض موضوعات الأدب الشعبي والفولكلور والتراث الشعبي ... تحت نفس بند علم اجتماع الأدب خلال المجلد الأول، في حين تم تصنيف دراسات علم الفولكلور كبند مستقل في بقية المجلدات.

لقد تم حصر حوالي ٧٠ عملاً تم تصنيفها في المجلدات تحت بند علم اجتماع الأدب، والتى سيقسمها الباحث الى جزئين أولهما هو الأعمال فى مجال انثروبولوجيا الفن والأدب واللغة وثانيهما هو علم اجتماع الفن والادب واللغة. ولن يلتزم الباحث هنا بعرض المؤلفات طبقًا لتسلسل نشرها من الناحية التاريخية، وإنما سيعرضها تباعًا بما يحقق فهم المجال الذي وردت عنه.

أولاً – الدراسات والأعمال في مجال أنثروبولوجيا الأدب والفن واللغة :

كلمة أنثروبولوجيا Anthropology كلمة من أصول غير عربية. وهي تتكون من مقطعين أحدهما وهو الأول ومصدره كلمة Anthropos وتعني الإنسان، والثاني وهو الأخير في الكلمة مصدره Logos ومعناه دراسة على مستوى عال من التجريد. وقد شاع استخدام المصطلح "أنثروبولوجيا" في اللغة العربية ليدل على أحد فروع العلوم الإنسانية. ويختلط علم الاجتماع بالأنثروبولوجيا كثيرًا نظرًا لتقاربهما وتداخلهما في المجال والمنهج والنظريات. بل أنه أصبح من الصعب التمييز بين كون الدراسة أنثروبولوجية أم سوسيولوجية في الفترة الأخيرة. وتتم دراسة الأنثروبولوجيا بفروعها حاليًا ضمن المقررات الدراسية لتخصص علم الاجتماع في أقسام علم الاجتماع بالجامعات المصرية والعربية. والجدير بالذكر هو أن أقسام الأنثروبولوجيا تعد نادرة في الجامعات المصرية، ولا يوجد منها إلا قسمًا واحدًا بكلية الآداب جامعة الإسكندرية إضافة إلى قسم آخر تابع للمعهد العالي للدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة.

ورغم التداخل الشديد بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا فإنه يمكن التمييز بينهما فيما يلي :

١- نشأة الأنثروبولوجيا في الغرب كعلم يدرس الإنسان في المجتمعات البدائية والمجتمعات التقليدية التي احتلتها الدول الغربية (وهي تقع في قارة أفريقيا وأمريكا الجنوبية، وجنوب آسيا واستراليا ...) وكان الهدف منها فهم حياة هذه القبائل البدائية والمجتمعات التقليدية من الداخل حيث تتم إقامة الباحثين الأوربيين فيها وتعلم لغات ولهجات وثقافة هذه التجمعات البشرية. أما علم الاجتماع فقد نشأ لدراسة المجتمعات الحديثة والمعاصرة مع التركيز على جمع بيانات كمية عن الظواهر الاجتماعية لفهم الحياة المعاصرة في المجتمع الغربي أساسًا.

٢- بلورت الأنثروبولوجيا منهجًا أو طريقة في إجراء الدراسة أصبح يُعرف بالمنهج الأنثروبولوجي وهو يعتمد على الإقامة في مجتمع الدراسة ومشاركة أعضاء المجتمع في معيشتهم مع ملاحظة حياتهم خلال المعايشة. وقد بلورت الأنثروبولوجيا أسلوبًا يسمى الملاحظة بالمشاركة كطريقة لجمع البيانات. وقد اعتمد الأنثروبولوجيون على مساعدة كبار السن ممن يتفهمون ثقافة بلادهم بعمق، والذين أصبح يطلق عليهم "الإخباريون Informants أي قادة المجتمع الصغير الذي تتم دراسته، والذين يعتمد عليهم الأنثروبولوجي في تفهم الثقافة العميقة لمجتمعاتهم بينما بلور علم الاجتماع طريقة أخرى في دراسة الظواهر الاجتماعية وجمع بياناته عنها، وكان أشهر المناهج هو ما يسمى المسح الاجتماعي Social survey method، مع استخدام أداة لجمع البيانات يطلق عليها "الاستبيان" أو استمارة أسئلة لجمع بيانات من عينة البحث Questionnaire.

٣- اهتمت الأنثروبولوجيا بالإنسان الذي تدرسه كإنسان بدائي أو تقليدي من نواحي عديدة بما فيها الجانب الفيزيقي حتى أن أحد فروعها يطلق عليه "الأنثروبولوجيا الفيزيقية، إضافة إلى الأنثروبولوجيا الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية ثم أنثروبولوجيا الفن وأنثروبولوجيا اللغة وغيرها. أما علم الاجتماع فقد ارتكزت دراسته على الكيان الاجتماعي فقط وبالتالي ظهرت فروعه مرتبطة بالطبيعة الاجتماعية للمجتمعات ومن هنا ظهرت له فروع علم الاجتماع الاقتصادي، والسياسي، والعائلي، والديني، والتربوي، والأدبي، والفني ... وغيره.

وهكذا يمكن التمييز بين علم اجتماع الأدب والأنثروبولوجيا الأدبية أو بين علم اجتماع الفن وأنثروبولوجيا الفن على أساس تركيز علم الاجتماع على الجانب الاجتماعي المرتبط بالأدب أو الفن واللغة على نطاق مجتمعات حديثة ومعاصرة، بينما ترتبط الأنثروبولوجيا بدراسة الأدب والفن واللغة في المجتمعات الصغيرة المحلية التقليدية في الأساس.

وبالنظر إلى المؤلفات المكتوبة باللغة العربية في مجال أنثروبولوجيا الفن والأدب واللغة يتضح ما يلي :

أ- أن حجم الدراسات والأعمال التي كتبت في مجال الأنثروبولوجيا متضمنة هذه الفروع تعد محدودة جدًا بالقياس إلى الأعمال المصرية والعربية في مجال علم اجتماع الأدب، والفن، واللغة.

ب- أن دراسات الأنثروبولوجيا التي تعرضت للفن جاءت محدودة جدًا تمثلت في دراستين هما :

- **سعاد علي حسن شعبان** : الفن في أفريقيا : دراسة في الأنثروبولوجيا الجمالية (مقال في مجلة الدراسات الأفريقية، عدد ٩، ١٩٨٠، ٣٦ صفحة).

وقد أكدت المؤلفة على العلاقة الوطيدة والتبادلية بين الفن والبيئة المجتمعية، حيث أشارت إلى أن الفنان يستمد الأفكار والصور الذهنية من بيئته الاجتماعية المحيطة، وكذلك فإن الفن بدوره يعد أداة لمعرفة المجتمع الذي ينتمي إليه الفنان. وأكدت المؤلفة على أن قبائل البوشمن في جنوب أفريقيا شهيرة بفن النحت والنقش، في حين أن أفريقيا الشمالية ذات الطبيعة الرعوية والزراعية لا تنتشر فيها هذه الفنون بنفس الدرجة.

- **نادية بدوي علي بدوي** : الفن عند قبيلة البيجا : دراسة ميدانية في الأنثروبولوجيا الجمالية، (رسالة دكتوراه) ١٩٩٢، القاهرة، معهد الدراسات الأفريقية، قسم الأنثروبولوجيا.

والدراسة تحاول الكشف عن العلاقة بين الفن وبقية الأنساق الاجتماعية في قبيلة البيجا التى تعيش بالصحراء الشرقية بامتداد ساحل البحر الأحمر، وحتى مرتفعات الحبشة منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى أن هذه القبائل لها ثقافتها العريقة التي لم تتأثر بل استوعبت كل الثقافات الوافدة إليها من فرعونية وبطلمية ورومانية وعربية ومسيحية وخلاصة الأمر أن المؤلفة رأت أن الثقافة العريقة تستوعب ثقافات أخرى دون أن تتخلى عن ثقافتها الجمالية الخاصة بها.

رؤية نقدية لعلم "أنثروبولوجيا الفن" ودراساتها في مصر خلال القرن العشرين :

"أنثروبولوجيا الفن" فرع من فروع الأنثروبولوجيا التي هي بدورها علم من العلوم الاجتماعية الإنسانية. والعلوم وجدت لكي تقدم دراسات واقعية من المنظور العلمي، فتساعدنا على فهم الظواهر الاجتماعية في مجتمعاتنا. وهناك قسم علمي جامعي بالإسكندرية وآخر بمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة، وهناك متخصصون وطلاب يدرسون هذا ليس فقط في هذين القسمين، وإنما أيضًا في جميع أقسام علم الاجتماع وبعض أقسام علم النفس، وكليات ومعاهد الخدمة الاجتماعية وغيرها. ومن المتوقع من هذا العلم أن يقدم لنا جهودًا بحثية لفهم واقعنا الاجتماعي. والفن في أي مجتمع هو نشاط واسع وهو يمثل جزءًا أساسيًا من حياة كل مجتمع، يؤثر فيه ويتأثر ببقية جوانب الحياة فيه فكلمة "فن" تشير إلى مجموعة من الفنون منها ما هو كالرسم والتصوير والنحت والعمارة، ومنها ما هو كالغناء والموسيقى والرقص وغيره ... ومع أن دراسة الفن من المنظور الاجتماعي لا تقتصر على الأنثروبولوجيا، ومع أن فرع أنثروبولوجيا الفن فرع ناشئ وحديث، فإن عدد الأعمال التي أتيحت (من خلال الببليوجرافيا الحالية) متواضع للغاية. إنه يقتصر على رسالة للدكتوراه ومقالة صغيرة تم إنجازهما حتى عام ٢٠٠٠.

إن أنثروبولوجيا الفن تتميز كعلم بدراسة الجماعات والمجتمعات الصغيرة، والكشف عن نظرتها إلى الفن وصور التعبير الفني لديها، وتقييمها للفنون المختلفة. وفي مجتمعنا المصري تنوعات مذهلة لجماعات ومجتمعات محلية صغيرة تحتاج إلى رصد وفهم الوقائع المرتبطة بالفن لديها، إذ إن رصد حالات الثبات والتغير في كل الفنون الشعبية لدى جماعة النوبيين والسيناوية والقبائل العربية في الصحاري المصرية وخاصة في التخوم الغربية من الحدود المصرية، وفي مرسى مطروح، وفي الواحات، وفي القرى ... جميعها تحتاج إلى دراسات ميدانية عميقة تساعد على فهم ثقافتنا وموقع الفن فيها.

إن الفنون في مصر وفي الثقافة العربية عمومًا تتقاطع مع العادات والتقاليد ومع الدين ومع السياسة ومع التحضر والحداثة وغيرها. ويكفي القول أننا نواجه دائمًا مواقفًا متذبذبة من أنواع الفنون المختلفة، وذلك انطلاقًا من منظور الحركات والجماعات الدينية، حتى أن الجماعات الدينية في فترات تاريخية معاصرة قاومت أنواعًا معينة من الفنون، وقدّمت أنواعًا أخرى، ومجتمعنا المصري شأنه في ذلك شأن كل المجتمعات يحتاج إلى جهود الباحثين في مجال أنثروبولوجيا الفن حتى نفهم رؤى الجماعات والمجتمعات المحلية المختلفة بل والقبائل والطوائف الدينية والطبقات والجماعات العمرية ... للفنون بأنواعها. ويكفي مجتمعنا أنه يحتاج إلى دراسات علمية واقعية تجيب على سؤال مهم : هل لدينا في مصر فن هابط؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن الذي يراه كذلك؟ وإذا كان هناك إجماع على الأعمال الفنية الهابطة ... فلماذا تنشأ وتنتشر؟ إن مجتمعنا يحتاج إلى رصد الوقائع بطريقة علمية، وليس مجرد أصوات لأفراد تتعالى تارة وتتوارى تارة أخرى. ولعل أنثروبولوجيا الفن التي لم تقم بدور في تقديم أعمال ودراسات في مجالها حتى عام ٢٠٠٠ تكون قادرة وقائمة الآن خلال الخمسة عشر سنة منذ بداية القرن الواحد والعشرين بما يساعدنا على فهم مجتمعنا بطريقة علمية.

ج- هناك عدد ٦ أعمال تدخل في نطاق الأنثروبولوجيا اللغوية أو أنثروبولوجيا اللغة. والمعروف أن كلا من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ينظر إلى "اللغة" باعتبارها ظاهرة اجتماعية فهي عامة في المجتمع، وهي إنسانية أي ترتبط بالإنسان دون الحيوان، وهي تاريخية حيث لا ينتجها الفرد وإنما يتعلمها وهي سابقة تاريخيًا في وجودها على وجود الفرد، وهي جبرية وملزمة للفرد فهو لا يستطيع أن يخرج عن مفرداتها وصياغاتها وأحكامها وهو ملتزم – ومجبر – على استخدامها في المجتمع، وهي – مع ذلك – ذات جاذبية للفرد فالمرء ينجذب إلى استخدام لغة قومه – وهي تتأثر ببقية أنساق الحياة الاجتماعية وتؤثر فيها.

وقد تضمنت الأعمال التي أنتجت حتى نهاية القرن العشرين في مجال الأنثروبولوجيا إسهامات لأسماء علماء مصريين في مجال الأنثروبولوجيا ومنهم علي أحمد عيسى، ومحمد عباس إبراهيم وغيرهم.

وفيما يلي بيان بأهم الأعمال العربية في مجال الأنثروبولوجيا اللغوية حتى نهاية القرن العشرين.

- **محمد صبري محمد عبد الغني** : الطبيعة الاجتماعية للغة (أطروحة دكتوراه، قسم الأنثروبولوجيا، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٩١، ص ٢٧٨). والرسالة تستهدف وصف حالات إعادة الصياغة اللغوية الخاصة بوصف أو تسمية الأشياء. وهي دراسة في تغير الكلمات والمعاني اللغوية باعتبار اللغة أشبه بالكائن الحي الذي تتبدل خلاياه عبر الزمن. وقد استخدم الباحث الملاحظة بالمشاركة أو المعايشة كمنهج أنثروبولوجي، حيث لاحظ وشارك في مواقف تخاطب مختلفة ورصد المصطلحات التي يتم استخدامها بين المتخاطبين وما يحدث فيها من تنوع وتغير حسب السياق الاجتماعي. وقد أطلق على مواقف التخاطب مصطلح "المجتمعات الكلامية" وقد تبين له من دراسته أن المجتمعات الكلامية تختلف باختلاف مهن المتخاطبين. وقد ركز كثيرًا على أسماء الأشخاص، ولاحظ أن تسمية الأبناء تتم على غرار تسمية الوالدين، وأن هناك تيارا واضحا في تسمية الأولاد وهى أسماء التدليل، وهي تسميات عادة ما تكون غير مستقيمة لغويًا، وأن هناك أسماء للشهرة تلغي الأسماء الرسمية في المخاطبة ... وغيرها.
- **محمد عباس إبراهيم** : وضع الأنثروبولوجيا اللغوية في مصر،(مؤتمر الوضع الحالي لعلم الاجتماعي والأنثروبولوجيا في مصر، ٢١–٢٣ ديسمبر، ١٩٩٦، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٦، ٤٥ صفحة).

وفي هذه الورقة المهمة تجد عرضًا لتاريخ ونشأة الحديث عن الظاهرة اللغوية في التراث الأنثروبولوجي عند الأمريكيين والبريطانيين. وقدمت الورقة عرضًا تقريريًا لأهم ما أنتجه أعضاء هيئة التدريس والباحثون من طلاب الدراسات العليا بقسم الأنثروبولوجيا، بكلية الآداب جامعة الإسكندرية وهي متنوعة في طبيعتها، منها دراسات تحليلية، ودراسات حقلية. وهذه الأخيرة أجريت في مصر والسودان وشمال أفريقيا، ومجتمعات الخليج العربي. وفي هذه الورقة أيضًا عدد من التوصيات العامة التي تتصل بعلم الأنثروبولوجيا اللغوية وتطبيقاته في مصر.

- **علي أحمد عيسى** : وحدة اللغة والآداب الشعبية في شعوب شمال أفريقيا، وتأثيرها في السلوك الإنساني (في كتاب : قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي، تحرير : لويس كامل مليكة، ١٩٦٥، ص ١٩).

يبدأ المؤلف من تصور مسبق عن أهمية اللغة من ناحية والأدب الشعبي من ناحية ثانية في تقريب الصلات بين الشعوب، وبالتالي يحاول فحص وعرض مفردات اللغة العربية والأدب الشعبي السائد في دول شمال أفريقيا وخاصة مصر والمغرب. ويذكر المؤلف أن الهدف من الورقة البحثية هو المقارنة والمقاربة بين اللغة العربية والأدب الشعبي المستخدمان في دول شمال أفريقيا بقصد التقريب بين العرب جميعًا. والحقيقة أن المؤلف حاول استخدام البيانات الميدانية التي أتيحت له (جمعها بنفسه أو انتقاها من دراسات أخرى) للكشف عن مدى التقارب القائم في اللغة المستخدمة في الحياة اليومية (بين المصريين والليبيين) وفي الأمثال الشعبية المنتشرة بصيغة موحدة أو صيغ مختلفة طبقًا للهجات المحلية ... الخلاصة أنه أراد إظهار مدى التقارب بين الشعوب العربية عسى أن يقربهم ذلك من بعضهم البعض كجماعة قرابية ثقافية واحدة.

- **عبد الله عبد السلام علي خميس** : اللغة ونسق الضبط الاجتماعي : دراسة في الأنثروبولوجيا اللغوية (رسالة ماجستير، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم الأنثروبولوجيا، ١٩٨٥، ص ٢٢٩).

والهدف العام لهذه الدراسة هو إثبات أن وجود لغة مشتركة مطلب جوهري لوجود تماسك اجتماعي في أي مجتمع. فاللغة حسب رأي الباحث تجبر الأعضاء على الانصياع للمعايير السائدة، وتحدد الأدوار داخل ثقافة المجتمع البدائي، وتساعد على امتلاك أصحاب المراكز سلطتهم في ممارسة الضبط الاجتماعي. وقد اعتمدت الدراسة على تحليل محتوى لغة الحديث في المجتمع. وقد توصلت الدراسة إلى أن اللغة تملك التأثير المعرفي على من يتحدثونها فهي أداة التعبير عن الأفكار والقيم، وكلما وُجدت لغة مشتركة بين أعضاء مجتمع، كلما زادت تفاهمات أفراده وتحقق وضوحهم على الدور الاجتماعي لكل منهم وبالتالي يتحقق التماسك الاجتماعي (ليس لدينا تفاصيل عن حجم ونوعية البيانات الحقلية التي جُمعت، ولا عن أسلوب تحليلها).

- **محمد عباس إبراهيم** : التحضر والظاهرة اللغوية في مجتمع متعدد اللغات، فصل(في كتاب "الهوية الثقافية والشخصية القومية، تحرير غريب سيد أحمد، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥، ص ٤٧).

هذه دراسة ميدانية أنثروبولوجية قام بها أستاذ في تخصص الأنثروبولوجيا من مصر، على مجتمع الإمارات العربية المتحدة. وقد رصد من خلالها اللغة العربية وما يحدث فيها من تغيرات نتيجة حركة التحضر السريعة في الإمارات، والتي تطلبت استقدام عمالة ممن يتحدثون لغات أخرى كالهندية والفارسية والإنجليزية وقد ساعد وجود هؤلاء بأعداد كبير مع ممارستهم أعمالا مهمة تجعلهم في حالة احتكاك دائم وتفاعل مستمر مع أبناء المجتمع. وقد اعتمد الكاتب على الملاحظة بالمعايشة مع إجراء مقابلات متعمقة، والاستماع قصدًا إلى تسجيلات فنية وقد تبين للكاتب أن اللغة العربية في الإمارات تأثرت بحركة التحضر ووجود هؤلاء الناس الذين يتحدثون لغات مختلفة، فقد أُدخلت إلى اللغة العربية المستخدمة يوميًا كلمات وعبارات هندية وفارسية وإنجليزية. وقد أكد على أن اللغة الوطنية (العربية) بالإمارات تعتبر في خطر لأن تغيرها يؤدي إلى تغير روح الشعب الإماراتي.

- **علي إبراهيم علي** : أثنوجرافيا الكلام وقضايا النقد والإبداع والمأثور الشعبي، (مقال في مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، عدد ١١٧، ١٩٩٦، ٥ صفحات).

كلمة "أثنوجرافيا" تشير إلى فرع من العلوم الاجتماعية ويصنف أحيانًا باعتباره فرعا من فروع الأنثروبولوجيا وكلمة أثنوجرافيا تناظر كلمة جغرافيا وكلمة ديموجرافيا. والكلمات الثلاث تنتهي بمقطع واحد "جرافيا"، وهو مقطع مستمد من اللغات الغربية وهو يشير إلى عملية وصف وتوزيع ظاهرة معينة، وبالتالي فوجود هذا المقطع منسوبًا إلى الكلمات السابقة يشير إلى التوزيع الاجتماعي أو السلالي، وتوزيع الظواهر التضاريسية والمناخية، وتوزيع السكان. وعليه فإن كلمة أثنوجرافيا تشير إلى علم يهتم بوصف الحياة الاجتماعية لجماعات سلالية أو عرقية أو اجتماعية معينة، وعلاقة ذلك بظواهر اجتماعية أخرى. أما كلمة أثنولوجيا الكلام فهي تشير هنا إلى توزيع الكلام (مفرداته، وعباراته، ودلالاته) بحسب الجماعات الاجتماعية التي تستخدمه. فكل أسرة أو عائلة أو قبيلة أو حتى أمة تستخدم الكلام بالطريقة التي تتوافق مع طبيعة حياتها الاجتماعية، وبالتالي فمن الضروري أن نأخذ

في اعتبارنا هذا البعد الاجتماعي عند دراسة أية ظواهر اجتماعية لغوية. فإذا أراد باحث مثلاً أن يقدم نقدًا أو يدرس النقد، أو يدرس الإبداع اللغوي في أية جماعة أو مجتمع يجب أن يدرس ذلك في ضوء فهمه لطبيعة الحياة الاجتماعية التي تتم فيها عملية النقد أو عملية الإبداع الأدبي أو اللغوي. والجدير بالذكر أن كلمة "أثنوجرافيا" قريبة المعنى من كلمة "أثنولوجيا" والكلمة الأولى تركز على توزيع الظواهر الاجتماعية طبقًا للجماعات الاجتماعية أو الاثنية، والكلمة الثانية تشير إلى تفسير الظواهر الاجتماعية في ضوء فهم طبيعة الحياة الاجتماعية لهذه الجماعات الإثنية.

والمقال الحالي يقدم "الأثنوجرافيا" كعلم قائم بذاته أولا، ثم ينتهي إلى أن محاولة أي باحث في هذا المجال أن يفهم "الكلام" أو "اللغة" في أي مجتمع، يجب عليه أن يفهمه في سياق الحياة الاجتماعية التي تتحدث هذه اللغة. وبناءًا عليه يدعو المؤلف من يهتمون بدراسة النقد الأدبي أو اللغوي، والإبداع الأدبي أو اللغوي في المملكة العربية السعودية أن يدرسوا ذلك ويفهموه في إطار السياق الاجتماعي للمجموعات أو المجتمعات المحلية التي تحدث اللغة. فالنقد والإبداع اللغوي في مجتمع السعودية لا يتم فهمه إلا من خلال دراسة الحياة الاجتماعية لكل جماعة سلالية أو عرقية أو قرابية تعيش في بيئتها المحلية الخاصة داخل مجتمع المملكة السعودية.

والمؤلف لهذا المقال هنا لا يقدم دراسة ميدانية أو حقلية وإنما يبرهن على أن النقد أو الإبداع اللغوي لا يجب أن ندرسه بعيدًا عن دراسة الواقع المحلي الثقافي للجماعة التي تتحدث هذه اللغة أو تنتج هذا الإبداع الأدبي على طريقتها.

تعليق على حصاد الإنتاج في مجال أنثروبولوجيا اللغة في مصر حتى عام ٢٠٠٠:

- كل ما تمت كتابته في هذا المجال عبارة عن ٤ مقالات ورسالتين إحداهما للدكتوراه والثانية للماجستير وأربع مقالات.
- غالبية الحصاد في هذا المجال ينتسب إلى قسم الأنثروبولوجيا جامعة الإسكندرية.
- تعد مقالة محمد عباس (أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة الأسكندرية) التي تقدم بها إلى مؤتمر "الوضع الحالي لعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا" هي الوحيدة التي تؤصل لهذا الفرع وترصد كذلك الكتابات المصرية في المجال وتقترح بعض التوصيات لصالح هذا التخصص.

- مجموع ما كتب إجمالاً يرسخ نظريًا أو حقليًا لفكرة أن اللغة ظاهرة اجتماعية ترتبط بالسياق الاجتماعي المحلي فتؤثر فيه وتتأثر به. وقد تركزت الكتابات حول : التأكيد على أن دول شمال أفريقيا (مصر – ليبيا – المغرب) تتشابه في استخداماتها للغة العربية مما يؤكد أصولها الثقافية المشتركة، وأن اللغة تمثل إحدى آليات الضبط الاجتماعي في المجتمع لأنها ليست مجرد كلمات وإنما أوعية للفكر ومعايير الأخلاق، كما أن اللغة تتأثر بعمليات التحضر وخاصة في دول الخليج حيث تتاح الفرصة لوجود أجانب مما يجعل ازدواجية اللغات واقع قائم في تلك المجتمعات (الإمارات هي المثل) مما يعد خطرًا على اللغة العربية كلغة وطنية.
- الرسالة المهمة من مجموع هذا العدد المتواضع من الأعمال المكتوبة في مجال الأنثروبولوجيا اللغوية حتى عام ٢٠٠٠م هي أن لغتنا الوطنية العربية هي قاسم مشترك بين الدول العربية، وهي أداة ضبط اجتماعي داخل المجتمع العربي، ولكن قد يهددها التغير الاجتماعي فيضعف من مكانتها أو مقوماتها.
- رغم أن ميزة الدراسات الأنثروبولوجية هي معايشة الجماعات والمجتمعات المحلية الصغيرة وبالتالي توفير بيانات حقلية عن التشابهات والتنوعات والتغيرات التي تطرأ على الظواهر اللغوية فيها، فإن دراسات الأنثروبولوجيا اللغوية (حتى عام ٢٠٠٠) في مصر لم تقم بهذه المهمة كما يجب، فالمجتمع المصري به عدد من الجماعات والثقافات الفرعية ذات التنوع اللغوي فثقافة ولغة أو لهجة أهالي النوبة، والتجمعات القبلية الصحراوية وأهالي سيناء وأهالي الواحات، والمجتمعات الساحلية، والطوائف الحرفية، وثقافة الصعيد، وثقافة الشباب، ولغة جماعات العصابات وجماعات التطرف الديني ... كلها ذات ظواهر تحتاج إلى دارسي الأنثروبولوجيا اللغوية. ويأمل كاتب هذه السطور أن يكون المتخصصون في الأنثروبولوجيا قد بدأوا يولوها أهمية خاصة مع بداية القرن الواحد والعشرين في مجتمعنا المصري.

د- دراسات أنثروبولوجيا الأدب (حتى عام ٢٠٠٠م): لا توجد أعمال عربية مكتوبة مما يدخل في نطاق هذا التخصص وتحت مسماه. ولا يتاح عن هذه الفترة إلا عملاً واحدًا هو عبارة عن مقالة (٢٩ صفحة) كتبها شيخ الأنثروبولوجيين في مصر العلامة أحمد أبوزيد بعنوان "الرواية الأنثروبولوجية بين الواقع الأثنوجرافي والخيال الإبداعي، مجلة عالم الفكر (مجلد ٢٣، عدد ٤٠٣، ص ص ١٣٥–١٦٣).

ومصطلح "الرواية الأنثروبولوجية" مصطلح غير شائع. وقد استخدمه أبوزيد للإشارة إلى بعض الكتابات التي يكتبها علماء الأنثروبولوجيا، أو يكتبها روائيون مستمدين أحداثها وشخصياتها من واقع مجتمع معين وبالذات المجتمع المحلي البسيط أو التقليدي. وهناك بالطبع عدد من هذه الأعمال التي يطلق عليها أبوزيد اسم أو وصف "روايات أنثروبولوجية". أما الرواية الأدبية الخالصة فيكتبها أديب روائي ويحدد شخصياتها وأحداثها دون تقيد بواقع محدد، وإنما يعتمد على خياله الأدبي.

وفي هذا المقال يلفت أبوزيد نظر القارئ إلى أن هناك مؤلفات أنثروبولوجية تروي قصصًا واقعية لحالات وأحداث اجتماعية وقعت في مجتمعات بعينها، وهي تخص هذه المجتممعات. وفي المقالة يطرح أبوزيد أوجه الشبه وأوجه الفرق بين الرواية الأدبية الخالصة والتي تعتمد على الخيال الإبداعي للروائي، وبين الرواية الأنثروبولوجية والتي تستمد تفاصيلها من الواقع الأثنوجرافي (أي المرتبط بثقافة جماعة سلالية أو عرقية تعيش في منطقة معينة). وينتهي أبوزيد إلى أن ما يجمع بين الرواية الأدبية والرواية الأنثروبولوجية هو أنهما يتشاركان في بناء العالم الإنساني، ولعله يقصد بذلك أن كليهما يعرض ويفسر جوانب ذات طبيعة إنسانية تساعدنا على فهم الإنسان وقد استعرض أبوزيد عددًا من الروايات العالمية التي يصنفها كروايات أنثروبولوجية (أربع روايات) موضحًا الجوانب الواقعية والجوانب الخيالية فيها ومؤكدًا على البعد الإنساني الذي تضمنته كل رواية.

بقى أن يؤكد الكاتب هنا على أن الأعمال الأنثروبولوجية التي كتبت باللغة العربية عن ظواهر الفن واللغة والأدب حتى عام ٢٠٠٠ جاءت في أعداد متواضعة، ولمست ظواهر محدودة، ولم تتضمن بيانات حقلية ثرية.

ثانيًا – الدراسات والأعمال في مجال علم اجتماع (الفن واللغة والأدب):

سبقت الإشارة إلى الأعمال والدراسات التي وردت في مجلدات الملخصات السوسيولوجية (وهي مصدر البيانات الذي تعتمد عليه هذه الدراسة) والتي تم فرزها وتصنيفها بواسطة الباحث هنا على أنها دراسات وأعمال أنثروبولوجية وبنفس المنطق فإن الكاتب هنا يعرض للأعمال والدراسات التي يصنفها باعتبارها تقع بشكل مباشر في مجال علم الاجتماع.

وبالنظر إلى الأعمال التي تم إنجازها في مجال علم اجتماع الفن، واللغة، والأدب، يتضح أنها بلغت عدد ٦٢ عملاً (مقالات أو كتب أو أبحاث علمية)، ففي مجال علم اجتماع الفن : ٣ أعمال وفي مجال علم اجتماع اللغة : ١١ عملاً وفي مجال علم اجتماع الأدب : ٤٨ عملاً.

ومن الواضح أن الكتابة في مجال علم اجتماع الأدب قد طغت بشكل كبير على الكتابة في مجال علم اجتماع اللغة، وعلم اجتماع الفن.

ولكن لماذا كتب المصريون المعنيون بالدراسات الاجتماعية – حتى نهاية القرن العشرين – عددًا كبيرًا نسبيًا في مجال الأدب (٤٨ عملاً) بينما كتبوا عددًا قليلًا في مجال اللغة (١١ عملاً) في حين تناولوا الفن في عدد محدود جدًا (٣ أعمال)؟

الحقيقة أنه من الصعب تقديم إجابة علمية على هذا السؤال دون إجراء دراسة تفصيلية عن الظروف الخاصة بمن كتبوا هذه الأعمال، والظروف الثقافية العامة التي دفعت إلى ظهور هذا الوضع إن البشر جميعا يستخدمون "اللغة"، وهناك فئة معقولة يمكن أن تستمتع بالفنون، وفئة أقل هي التي تستطيع التعامل مع الأعمال الأدبية فلماذا وُجد من يكتبون عن الأدب أكثر ممن يكتبون عن اللغة الذين هم بدورهم أكثر ممن يكتبون عن الفن؟ فلو كان شيوع استخدام نشاط معين في المجتمع هو الذي يدفع البعض إلى الكتابة عنه لكان عدد من يكتبون عن اللغة هو العدد الأكبر؟.

إن هناك أعمالا فنية وهناك أعمال أدبية وهي ذات طبيعة واضحة، بينما لا توجد منتجات خاصة باللغة ذاتها. إذ أن اللغة هي مادة الأدب وهي مادة بعض الفنون (كالغناء مثلاً) فلماذا لم تجد اللغة من يكتب عنها كظاهرة اجتماعية بينما ظهر هناك من يكتب عن الأدب كظاهرة اجتماعية، ولا يكتب عن الفن بنفس القدر؟

عمومًا فإن الفارق بين الأعمال التي ظهرت حتى نهاية القرن العشرين بالنسبة للكتابة عن الفن، والأدب، واللغة من منظور اجتماعي يظل يمثل حقيقة اجتماعية تحتاج إلى تفسير علمي. وقد يكون جزءًا من معطيات التفسير هو تأمل الأعمال التي ظهرت حول كل ظاهرة من هذه الظواهر.

١) دراسات علم الاجتماع في مجال الفن :

❖ **رمضان الصباغ : العلاقة بين الجمال والأخلاق في مجال الفن، (مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٧، عدد ١، يوليو ١٩٩٨، ص ص ٨٥ – ١٣٦).**

تناقش علاقة الفن بالأخلاق والجمال والدين وغيرها. والمقالة تناقش الفن عمومًا دونما تحديد لظواهر فنية معينة. وتتناول المقالة الجدل الدائر حول الفن باعتباره تعبيرا عن القيمة الجمالية (أي إنتاج الفن من أجل الفن لأنه يشبع حاجة البشر إلى التمتع بالجمال) في مقابل الرأي القائل بأن الفن تعبير عن حالة انفعال أخلاقي، وأنه محاكاة للأفعال الأخلاقية، بمعنى أنه له وظيفة اجتماعية تحقق ترسيخ قيم أخلاقية معينة في المجتمع، وفي مقابل الرأي الثالث الذي يرى أن للفن قيمة نفعية). ويتناول المقال مسألة تقويم الفن من منظور الدين والأخلاق. والواقع أن الجدل الدائر حول قيمة الفن وهل له قيمة جمالية في ذاته أم أنه يوجد لتحقيق وظائف أخرى أخلاقية أو دينية أو نفعية ... هو جدل يتخذ طابعًا فلسفيًا، أي يعتمد على المنطق العقلي أكثر من خضوعه لمنطق العلم حتى يتم حسم هذه المسألة بناءً على وقائع ميدانية.

إن الفن – حسب رأي الباحث هنا – موجود في المجتمعات، فلا توجد شعوب بلا فنون. وسواء توافقت أنواع الفنون مع أوضاع اجتماعية معينة بحيث تحقق وظيفة أخلاقية أو دينية أو عملية، أو لم تتوافق، فإن ذلك لن يجعل المجتمع يكف عن إنتاج أنواع من الفنون. وفي بعض الأحوال الاجتماعية الثقافية قد يتم توظيف الفنون لخدمة قيم أخلاقية أو دينية أو حتى اقتصادية، ولكن الفنون لا تنشأ فقط لخدمة أغراض معينة، إذ إن الفنون وسائل تعبير إنسانية ينتجها أفراد يمتلكون القدرة الإبداعية لإنتاج أعمال فنية تعبر عن ذواتهم وتلقى استحسانًا من جمهور في كل مجتمع. ولكن هؤلاء الفنانين نشأوا في المجتمع واستمدوا منه انفعالاتهم وتصوراتهم الاجتماعية، وهم يستخدمون المواد والموارد والأدوات المتاحة في مجتمعاتهم للتعبير عن أنفسهم، ولذلك فليس من المنطقي أن يبدعوا فنونا لا علاقة لها بالمجتمع كلية، بل أنهم قد ينتجون فنونا تصبح ذات تعبير قوي عما يدور في المجتمع وتجسده، كما أنهم قد ينتجون فنوناً تعبر بعمق عن أخلاقيات أو عقائد مفضلة في مجتمعاتهم. وتدل شواهد الواقع الاجتماعي على أن الفنانين ينفعلون بما يدور حولهم ويخرجون هذه الانفعالات في صور فنية. وفي بعض الأحيان قد تتم دعوتهم وتشجيعهم على ممارسة إبداعات فنية تخدم غرضاً لذاته. ففي أوقات الحروب يقوم الفنانون في

مجتمعاتهم بإنتاج إبداعات فنية تعبر عن انفعالاتهم بهذا الحدث (الحرب) ولكنهم قد يجدوا تشجيعًا من أفراد أو مؤسسات أو حكومات لإنتاج فنون لدعم الحرب ورفع الروح المعنوية. ولكنه من المخالف للمنطق والواقع أن نتصور أن الفنون تنشأ فقط في حالات خاصة لخدمة أوضاع خاصة.

وفي هذا المقال طرح رمضان الصباغ النظرية البنيوية، وهي نظرية يتقاسمها كل من الناقدين الفنيين وعلماء اجتماع الفن حيث يحللون الأعمال الفنية. وكما هو واضح من عنوان أو مسمى هذه النظرية فهي نظرية ترى أن للمجتمع بناء وأن هذا البناء العام يؤثر في بنية الأعمال الفنية بل وفي مكونات وعناصر وأطراف وعمليات إنتاج الأعمال الفنية. وقد ناقش رمضان الصباغ خصائص المنهج البنيوي أي الخطوات التي ندرس بها الفن ونحلله في ضوء النظرية البنيوية.

أخيرًا فإن هذا المقال لم يكن مقالاً مباشرًا يؤصل لعلم اجتماع الفن، ولكنه تناول بعض القضايا المرتبطة به.

❖ **سعيد توفيق : جماليات الصوت والتعبير الموسيقي، (مجلة كلية الآداب، مجلد ٥٨، عدد ٢، أبريل ١٩٩٨، جامعة القاهرة، ص ص ٢٢٣-٢٦١).**

وهذه المقالة تتناول "الظاهرة الموسيقية في حياة الإنسان" ومن الواضح أن سعيد توفيق لديه وضوح رؤية حول ما يسميه الظاهرة الموسيقية.

والظاهرة الموسيقية ظاهرة إنسانية أي أنها ترتبط بالإنسان إنتاجًا وتذوقًا ونقدًا، والبشر مهيئون لسماع أصوات بعضهم البعض، ولسماع ما يحدث في بيئتهم من أصوات من الناحية البيولوجية، ولكنهم مهيأون أيضًا لاكتشاف أو اصطناع جماليات الصوت. كما أن تواجدهم وتفاعلهم معًا يجعل بالإمكان أن ينمو لديهم حس جمعي بجماليات أصوات معينة، إذ أن الصوت نفسه هو صوت الإنسان أو صوت الآلة الموسيقية أو صوت الطبيعة. لقد أدرك الإنسان أن للصوت درجات وتنوعات وأن إيقاع الصوت قد يحدث جمالاً يستشعره الإنسان. لقد سمع الإنسان أصواتًا في الطبيعة من حوله، كما سمع نفسه، واخترع آلات تنتج الأصوات ورتب درجة وتوقيت صدور الأصوات على نحو معين فوجدت الموسيقى.

لقد تناول سعيد توفيق هذه الظاهرة الموسيقية فاستعرض نشأة الآلات الموسيقية، وتطور فن الموسيقى عبر العصور. واستعرض أيضًا تصنيف الموسيقى إلى موسيقى

وصفية وأخرى درامية وثالثة غنائية، كما تناول تصنيف الموسيقى حسب الغرض منها مثل الموسيقى الدينية والموسيقى الجنائزية والموسيقى العسكرية والموسيقى الشعبية والموسيقى القومية. وكتب سعيد توفيق عن عناصر الصوت الموسيقي وهي : الإيقاع، واللحن، والهارموني. وعرض دور الموسيقى في المعتقدات المؤثرة على حياة الشعوب.

إن مقالة سعيد توفيق لا تضم بيانات ميدانية ذات طابع سوسيولوجي، ولكنها تقدم لنا التراث الذي تعامل مع محاولات فهم الظاهرة الموسيقية.

❖ **يوسف عبد القادر الرشيد : الموسيقى العربية ومتطلبات العصر (مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٧، عدد ٢، أكتوبر – ديسمبر، ١٩٩٨، ص ص ٢٠١–٢٣٩).**

وتركز هذه المقالة على لون من الموسيقى هو الموسيقى التي نشأت في المجتمع العربي والمعروفة بالموسيقى العربية. وهكذا فالمقالة تتناول الموسيقى التي نشأت وتطورت في مجتمع معين أو إطار ثقافي محدد. لقد عرض يوسف الرشيد لتاريخ مدارس الموسيقى والغناء في مصر خلال الفترة (١٨٤٥–١٩٩١)، مشيرًا إلى ظهور قوالب غنائية وموسيقية معينة مثل : الدور، والموشح، والقصيدة. وتناول المقال أيضًا تطور الموسيقى والغناء في الكويت حديثًا. وتناول الكاتب تأثير "الحداثة" – أي النمط الغربي في النظرة إلى الحياة في المجتمعات الحديثة – وتأثيرها على "الموسيقى العربية" تأثيرًا سلبيًا يفقدها مواصفاتها المميزة لها.

وهذه المقالة علامة على أن الموسيقى والغناء ظواهر اجتماعية تنشأ متأثرة بالبيئة الاجتماعية ومعبّرة عنها، كما أنها يمكن أن تتأثر أيضًا بتأثيرات اجتماعية من بيئات أخرى بحيث تفقد هويتها التي استحدثها من بيئتها الأصلية.

يلفت الكاتب (يوسف عبد القادر) النظر هنا إلى أن الثقافات التي تنتقل وتؤثر في مجتمعات غير التي نشأت فيها، يمكن أن يكون دورها سلبيًا حيث تطغى على الملامح الثقافية للمجتمعات الوافدة إليها. وانطلاقًا من هذا يحذر الكاتب من أن انتقال ثقافة المجتمعات الغربية الأوربية والمعروفة باسم "الحداثة" إلى المجتمعات العربية (ممثلة في مصر والكويت) قد تؤثر على الإبداعات الموسيقية التي أنتجتها المجتمعات العربية والتي أصبحت جزءًا من الثقافة العربية وهي المعروفة باسم "الموسيقى" ولعله من المنطقي أن نقول أن الثقافة العربية أنتجت موسيقى عربية استمدت طبيعتها وقالبها وإيقاعها ولحنها وأدواتها

من بقية الجوانب البيئية والثقافية للمجتمعات العربية، وبالتالي فهي متوافقة مع بقية عناصر الثقافة والبيئة العربية. ويعد استبدال أي مكون من مكونات الموسيقى العربية (قوالب أو إيقاعات أو ألحان أو أدوات ...) معناه افتقاد ما أبدعه العربي من موسيقى تعبر عن هويّة العربي وترتبط بتاريخه، وبالتالي تهدد بغياب أحد عناصر هويته المعروف بها. ومن ناحية ثانية فإن تحديث الموسيقى العربية أو إدخال عناصر الحداثة إليها يفقدها تماسكها، وارتباطاتها ببقية جوانب الثقافة. وحين تتغير الموسيقى العربية فمن الطبيعي أن يؤثر ذلك على المزاج العام للتذوق الموسيقى في المجتمع العربي، ويتخذ الأمر مواقف متباعدة بين الأجيال التي تربت على التذوق الجمالي للموسيقى العربية وبين الذين يكوّنون تذوقًا جماليًا بحسب سماعهم وإبداعهم الموسيقي الجديد. ومع أن الحياة قابلة للتجديد بطبيعتها فإن التجديد لابد أن يبدأ من داخلها، وأن يتواكب مع بقية العناصر الثقافية الأخرى وليس من خلال استعارة عناصر من ثقافة مغايرة. إن الخسارة التي تتحقق بتغيير أو استبدال أو تحديث الموسيقى العربية على الطريقة الأوربية يمكن أن يترتب عليها ما يلي :

١- افتقاد الجهد الإبداعي للأجيال التي أبدعت الموسيقى العربية سابقًا.
٢- نشأة فجوة بين فئات المجتمع (الكبار والصغار عادة) بحيث يكون لكل منهما تذوقه الجمالي للموسيقى، وهذا يعد شرخًا في ثقافة قائمة متكاملة حتى ولو بدأ وظل فترة محدودة ثم تم دمجه في النسق الموسيقي للمجتمع.
٣- حتى حينما تنجح الموسيقى الوافدة في الانتشار ويتبناها ويستمتع بها عدد أكبر من المجتمعات العربية فإن ذلك سيفقد هذه المجتمعات تراثها وهويتها ويكرس تبعيتها ويغير العناصر الأخرى بحيث تنتزع من سياقها ويقل تعبيرها عن الذوق الجمالي الذي كان سائدًا من قبل.

الخلاصة أن الكتابات العربية في مجال علم اجتماع الفن حتى نهاية القرن العشرين جاءت محدودة، وعبارة عن مقالات نظرية وتحليلية وليست دراسات ميدانية ... إن أمامنا شوط طويل وجديد من الدراسات والبحوث المطلوب إجراؤها في هذا المجال. فالفنون منها ما هو تصويري ومنها ما هو تشكيلي ومنها ما هو تعبيري. وهي جميعًا تنشأ وتتطور في ضوء علاقتها ببقية جوانب حياتنا المختلفة. وليس لدينا دراسات واقعية عن تلك الظواهر الفنية.

٢) الدراسات العربية في مجال علم اجتماع اللغة :

لقد امكن جمع وتصنيف أحد عشر عملاً في مجال "علم اجتماع اللغة" حتى نهاية القرن العشرين. وقد تلخص الاهتمام من خلال هذه الأعمال في القضايا التالية :

١- العلاقة بين اللغة والمجتمع.
٢- تأصيل فرع علم الاجتماع اللغوي أو علم اجتماع اللغة (كلاهما نفس المعنى).
٣- مناقشة قضايا وظواهر اجتماعية ترتبط باللغات .. كما سنرى.

والأعمال العربية في مجال علم اجتماع اللغة (من واقع ما جاء في الببليوجرافيا المشار إليها سلفًا) هي:

- علي عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع (دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٩٧).
- محمد السيد علوان : المجتمع وقضايا اللغة (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٥٥، ص ٢٩٨).
- السيد عبد الفتاح : علم الاجتماع اللغوي (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢١٢).
- كمال محمد بشر : علم اللغة الاجتماعي (دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٩٩).
- محمد كشاش : إشكالية العلاقة بين اللغة والمجتمع : رؤية في انعكاس الأصول الاجتماعية في جذور اللغة العربية (مجلة دراسات عربية، عدد ٣/٤ يناير/فبراير، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٨، ص ص ١١٨-١٣٢).
- علي عبد الواحد وافي : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٤٢).
- رحاب قبطان : اللغة الغائبة : نحو لغة غير جنسوية "هاجر" كتاب المرأة، عدد ٥، ٦ (دار نصوص للنشر، القاهرة، ١٩٩٨، ص ص ٢٤٧-٢٥٤).
- محمد علي الملا : البعد الاجتماعي الحضاري للغة " طبيعته وأثره في الاتصال اللغوي الدولي، (مجلة كلية الآداب، مجلد ٥٥، عدد ٢، ١٩٩٥، ص ص ١٥٧-١٨١).

- محمود الذواوي : في مخاطر الازدواجيات اللغوية والثقافية على اللغة الوطنية والهوية الجماعية، (مجلة الفكر العربي، مجلد ١٦، عدد ٨٠، ١٩٩٥، ص ص ٢٥–٣٨).
- إبراهيم حمد القعيد : أثر الظواهر الثقافية الاجتماعية في تعلم اللغة الأجنبية (مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مجلد ١٤، عدد ١، ١٩٨٧، ص ص ٢٦٩–٢٩٣).
- محمد حامد يوسف يوسف : اللهجة المحلية في بعض المجتمعات العربية : بحث ميداني مقارن بين مجتمعي بريدة بالسعودية وبعض المجتمعات المحلية في مصر (مجلة التربية، جامعة الأزهر، عدد ٣١، ١٩٩٣، ص ص ١٣٥–٢٠٢).

وإذا تأملنا الأعمال الحالية المرتبطة بعلم اجتماع اللغة حتى نهاية القرن العشرين نستخلص بعض الحقائق منها :

١. يعتبر علي عبد الواحد وافي – وهو واحد من الرعيل الأول في تخصص علم الاجتماع في مصر والعالم العربي – هو من أوائل من كتب عن العلاقة بين اللغة والمجتمع، أو تناول اللغة كظاهرة اجتماعية إنسانية. وقد انفرد بكتابة أول عمل في هذه القضية باللغة العربية في النصف الأول من القرن العشرين حينما كتب (عام ١٩٤٧) عن نشأة اللغة في أي مجتمع محاولاً المناظرة بين نشأتها عند الإنسان ونشأتها عند الطفل. وقد كتب بعد ذلك في فترة مبكرة أيضًا (عام ١٩٦٠) عن العلاقة بين اللغة والمجتمع.
٢. هناك محاولتان صدرا قرب نهاية القرن العشرين (أي عام ١٩٩٥) للتأصيل لفرع علم الاجتماع الذي يدرس اللغة كظاهرة اجتماعية. وقد أطلق أحد المؤلفين على هذا الفرع اسم "علم الاجتماع اللغوي وهو السيد عبد الفتاح، في حين أطلق المؤلف الثاني على هذا الفرع اسم "علم اللغة الاجتماعي" والواقع أن المتخصصين في علم الاجتماع يفضلون استخدام "علم الاجتماع اللغوي" بينما يبدو أن المتخصصين في علوم اللغة يفضلون استخدام "علم اللغة الاجتماعي" وقد صدر أخيرًا كتاب من تأليف أستاذ في علم اللغة بكلية دار العلوم بالقاهرة، (أ.د. محمد حسن عبد العزيز) بعنوان علم اللغة الاجتماعي (مكتب الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩) مما يدل على استمرار استخدام المتخصصين في اللغة اسم "علم اللغة الاجتماعي" على هذا الفرع.
٣. انشغلت الأعمال الباقية بالعلاقة بين اللغة والمجتمع وخاصة في ظل الاحتكاك الثقافي بين المجتمعات المعاصرة فعالج بعضها الاتصال اللغوي الدولي – بين الدول – وتأثيره على اللغة الوطنية والهوية القومية.

٤. هناك ندرة في الدراسات ذات الطبيعة الميدانية – أي التي تعتمد على جمع بيانات عن ظواهر اجتماعية ترتبط باللغة في المجتمع. وتعتبر دراسة محمد حامد يوسف عن التشابه والاختلاف بين اللهجات المحلية لمجتمعات محلية في السعودية ومصر "هي الدراسة الوحيدة ذات الطابع الميداني حتى نهاية القرن العشرين.

والحقيقة أن المهتمين بقضايا وظواهر العلاقة بين اللغة وبقية جوانب الحياة في المجتمع يحتاجون إلى الكثير من الدراسات العلمية التحليلية والميدانية في هذا الميدان. فاللغة في أي مجتمع هي أداة التواصل الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي، وهي مؤشر حيوي على الكثير من الظواهر الاجتماعية فهي علامة على التقليد أو التبعية أو التحرر أو الإبداع أو الانتماء القومي أو التشرزم والانقسام العرقي والطائفي. إننا قد نفهم مجتمعاتنا بصورة أفضل إذا أمكن للباحثين أن يرصدوا ويحللوا الظواهر في المجتمع ولعل أحد الأعمال ذات القيمة فيما أشرنا إليه من أعمال هو ما كتبه رحاب قبطان تحت عنوان "اللغة الغائبة". فهذه المقالة الصغيرة توضح كيف أن لغتنا العربية تحمل مضامين ذكورية تعبر عن التمييز ضد المرأة، وإننا نحتاج إلى لغة عربية خالية من التعبير عن المرأة كجسد أو مخلوق أقل قيمة أو قدرًا أو إمكانية من الرجل. إن ما تعالجه هذه المقالة المحدودة العدد ليس إلا افتتاحية صغيرة لقضية جدلية في مجتمعاتنا العربية، فهل الحضارة العربية تقلل من قيمة المرأة فعلاً أم أنها توفر حماية زائدة تكبل المرأة، أم أنها تكرِّم المرأة تكريمًا زائدًا. إن البحث اللغوي الميداني يمكن بل يجب أن يساهم في هذا الحوار.

٣) الدراسات والأعمال العربية في مجال علم اجتماع الأدب :

تجدر الإشارة مرة أخرى إلى أن العلماء الذين يدرسون العلاقة بين "الأدب والمجتمع" يطلقون على هذا الفرع تسميات منها "علم اجتماع الأدب"، "علم الاجتماع الأدبي" سوسيولوجيا الأدب. وهذه التسميات متقاربة وتعني جميعًا نفس الشيء تقريبًا. ومن النادر أن يشار إلى هذا الفرع باسم "علم الأدب الاجتماعي" وإذا كان علماء الاجتماع يفضلون أن يطلقوا اسم "علم اجتماع الأدب" على هذا الفرع من علم الاجتماع، فإن المتخصصين في دراسة الأدب لا يستخدموا مثلاً "علم الأدب الاجتماعي" فهذه

التسمية غير سائدة بالإضافة إلى أنها غير مقبولة لأن عبارة "علم الأدب لا تبدو مناسبة فالأدب ليس علماً" وإنما له طبيعة مستقلة. ويفضل المتخصصون في دراسة الأدب أن يستخدموا عبارة "الدراسات الأدبية" وأقرب المفاهيم المعبرة عن علم اجتماع الأدب حسب المتخصصين في الدراسات الأدبية هو مفهوم "النقد الأدبي". وعلى هذا الأساس فإن دارس الأدب الذي يريد الاطلاع على كتابات المتخصصين في الدراسات الأدبية والتي تعالج علاقة الأدب بالمجتمع يمكنه أن يجد ذلك عندهم تحت عنوان "النقد الأدبي الاجتماعي".

وكما أشرنا من قبل فإن مجموع الكتابات والدراسات التي صدرت باللغة العربية – والتي وجدناها في مجلدات الملخصات السوسيولوجية (إنتاج مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب – جامعة القاهرة) تصل إلى عدد ٤٨ عملاً.

لقد تنوعت الأعمال المكتوبة في علم اجتماع الأدب حتى نهاية القرن العشرين (الكتابات باللغة العربية) ما بين المقالة والكتاب والدراسة العلمية ورسائل الماجستير والدكتوراه. ولكن الطابع الغالب عليها هو الطابع المقالي. فالمقال بالنسبة لفرع جديد كهذا يعتبر أكثر ملاءمة لأنه يطرح فكرة بصورة موجزة دون إغراق في التفاصيل، كما أنه يتلاءم مع طرح القضايا الجديدة في هذا المجال الجديد.

والحقيقة أن عرض الأعمال التي تم نشرها في علم اجتماع الأدب باللغة العربية خلال القرن العشرين بالتفصيل قد يحتاج إلى عمل علمي مستقل يتعامل مع جميع الأعمال ويكشف عما جاء فيها ويوضح مميزاتها وعيوبها. وهذا أمر ليس محله الآن (بل قد يتفرغ له باحث في مجال علم الاجتماع أو في مجال الدراسات الأدبية ليحصل به على درجة الماجستير أو الدكتوراه).

وفيما يلي سيتم استخلاص بعض الأفكار والحقائق حول هذه الأعمال. وسنضعها في صورة إجابات على أسئلة حتى تساعد القارئ على معرفة وضع علم اجتماع الأدب في مصر والعالم العربي خلال هذه الفترة.

فما هي ملامح التطور التاريخي للكتابة في المجال حتى نهاية القرن العشرين؟

- لم ترد أية إشارة إلى أعمال باللغة العربية في علم اجتماع الأدب في النصف الأول من القرن العشرين.

- إن أقدم الأعمال التي ورد ذكرها هنا مقالات كتبها أنيس المقدس بعنوان "الاتجاه الاجتماعي في الأدب العربي الحديث (مجلة الأبحاث، المجلد الثالث، أعداد ٢، ٣، ٤، عام ١٩٥٠–١٩٥١). ويبدو أن هذه المقالات مستمدة من مجال دراسات الأدب وليس مجال علم الاجتماع. والمعروف إن النقاد الأدبيين عرفوا ما يسمى بالاتجاه الاجتماعي في نقد الأدب بأنواعه كتطور في مجال النقد الأدبي. ويقصد بهذا الاتجاه في النقد تحليل الأعمال الأدبية في علاقتها بالأوضاع والظروف الاجتماعية وبيان مدى تأثرها بهذه الأوضاع ومدى تعبيرها عنها. لقد سميت هذه المدرسة بالمدرسة الحديثة في النقد بعد أن كانت المدرسة القديمة تحلل الأعمال الأدبية في ضوء معايير كتابة الأدب من حيث دقة النص ولغته وأسلوبه وصور البلاغة فيه.
- وهكذا لم تظهر كتابات لباحثين متخصصين في علم الاجتماع من المصريين أو العرب قبل عام ١٩٥٠.
- من أوائل الكتابات الرائدة في مجال علم الاجتماع الأدبي مقالة كتبها عبد الباسط محمد حسن (١٩٦٨) بعنوان "علم اجتماع الأدب" (المجلة الاجتماعية القومية، مجلد ٥، عدد ١). وهذه المقالة هي أول مقالة تستخدم مصطلح "علم اجتماع الأدب" في الكتابات العربية (الواردة في الملخصات المشار إليها).
- من أقدم الكتابات العربية تاريخيًا في مجال علم اجتماع الأدب كتاب "التحليل الاجتماعي للأدب" الذي كتبه واحد من علماء الاجتماع المصريين الموسوعيين وهو السيد يس والذي تم نشره عام ١٩٧٠ (مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة). وقد سبقه مقال للسيد يس نفسه بعنوان "نحو الدراسات الاجتماعية للظواهر الأدبية" (مجلة الفكر المعاصر، عدد ٥٧، عام ١٩٦٩). ويعد الكتاب (١٨٨ ص) من أوضح الكتابات العربية عن هذا الفرع من علم الاجتماع. وقد استعرض الكتاب قضايا مهمة مثل "المشكلات المنهجية والتطبيقية في علم الاجتماع الأدبي. وقد استعرض تفاصيل أطر مقترحة لبحوث علم الاجتماع الأدبي حسب المجالات الأساسية لبحوث هذا العلم (المؤلف – العمل الأدبي نفسه – الجمهور). وتضمن الكتاب دراسة اجتماعية تحليلية لرواية "العيب" للكاتب الروائي يوسف إدريس تحت عنوان "التصوير الأدبي للانحراف الاجتماعي. وهذه الدراسة تعد من أقدم الدراسات في هذا المجال.

ومن ناحية أخرى فإن كتاب السيد يس يقدم في الفصل التاسع والأخير تحليلاً منهجيًا لدراسة كانت قدمتها مجلة الطليعة في عدد سبتمبر عام ١٩٦٩ بعنوان "هكذا يتكلم الأدباء الشبان : شهادات واقعية وتعليقات" والدراسة نفسها تعتبر دراسة ميدانية حيث نزلت إلى الميدان وطرحت عددًا من الأسئلة على شباب الأدباء. وقد تناول السيد يس الجوانب المنهجية لهذه الدراسة، كما استغل عرضه وتحليله لدراسة مجلة الطليعة حتى يوضح الخطوات والقواعد والمشكلات المنهجية في بحوث علم الاجتماع الأدبي.

ويحوي كتاب السيد يس على تفاصيل أخرى مهمة منها بعض النظريات النفسية والفلسفية والاجتماعية حول علاقة الإنسان والمجتمع بالأدب. وقد شرح آراء شخصيات مهمة في مجال النظرية الاجتماعية في تفسير الأدب وخاصة لوسيان جولدمان وجورج لوكاش وغيرهما.

ما هي أهم الأعمال التي تؤصل لفرع علم اجتماع الأدب حتى نهاية القرن العشرين؟

لقد أشرنا إلى مقالة عبد الباسط محمد حسن حسن كأول مقالة في هذا المجال، وأشرنا إلى أعمال السيد يس رغم أنها لا تحمل عنوان "علم اجتماع الأدب حرفيًا. وهناك عدد من الأعمال العربية الأخرى التي ظهرت في القرن العشرين وهي تؤصل لفرع علم اجتماع الأدب وأهمها :

- حسين الحاج حسن علم الاجتماع الأدبي (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٣).
- محمد علي محمد : قضية التحليل الاجتماعي للأدب دراسة نقدية للصلة بين الأدب والمجتمع) (مقال في الكتاب السنوي لعلم الاجتماع، عدد ٤، ١٩٨٣).
- محمود علي الكردي : علم اجتماع الأدب في ضوء إسهامات المدرسة الاجتماعية الفرنسية (مقال في الكتاب السنوي لعلم الاجتماع، عدد ٤، ١٩٨٣).
- نوري حمودي القيسي : محاولات في دراسة اجتماع الأدب (دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧).
- محمد حافظ دياب : سوسيولوجيا الأدب : مساءلة نقدية. (مجلة المنار عدد سبتمبر ١٩٨٩).

- قصي الحسين : السوسيولوجيا والأدب. البحوث والباحثين وسبل الارتياد (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٣).
- سعدي صناوي : مدخل إلى علم اجتماع الأدب (دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٤).
- عاطف أحمد فؤاد : علم اجتماع الأدب (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٦٠).
- فتحي أبو العينين : التفسير الاجتماعي للظاهرة الأدبية : التراث وإشكاليات المنهج (عالم الفكر، مجلد ٢٣، عدد ٣ – ٤، د.ت).

ما هي الرسائل العلمية التي أجيزت في مجال علم اجتماع الأدب خلال القرن العشرين؟

هناك عدد ٦ رسائل للماجستير في تخصص علم الاجتماع الأدب تم إنجازها خلال هذه الفترة وهي :

- فتحي أبو العينين : الأدب والقيم الاجتماعية : دراسة تحليلية وبحث ميداني في ضوء مفاهيم علم الاجتماع (قسم الاجتماع كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٦).
- محمد عبد الحميد إبراهيم : البناء السياسي والأدب : تحليل سوسيولوجي لأعمال يوسف إدريس في الفترة من ١٩٥٢–١٩٧٠ (ماجستير، قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة القاهرة، د.ت).
- محمد علي إبراهيم محمد : الحراك الاجتماعي وأزمة البورجوازية الصغيرة : تحليل سوسيولوجي لأعمال نجيب محفوظ (ماجستير – قسم الاجتماع، كلية الآداب – جامعة القاهرة، ١٩٨٩).
- محمد علي محمد البدوي : الواقع الاجتماعي في الأدب المصري : دراسة سوسيولوجية (ماجستير قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٠).
- صالح سليمان عبد العظيم : تصوير الرواية السياسية المصرية للتغيرات البنائية في المجتمع المصري منذ السبعينات : دراسة سوسيولوجية لأعمال يوسف القعيد (ماجستير، قسم الاجتماع كلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٩٢).
- رباب أحمد أحمد مجاهد : الوضع الاجتماعي للمرأة في روايات نجيب محفوظ : دراسة سوسيولوجية لبعض الأعمال المختارة (ماجستير قسم الاجتماع، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٧).

ما هي الأعمال التي ركزت على القضايا النظرية في مجال علم اجتماع الأدب خلال القرن العشرين؟

المعروف أن الدراسات التي تركز على قضايا النظرية في مجال علم الاجتماع تعد قليلة نسبيًا. وبالطبع هناك معالجات لمثل هذه القضايا في سياق فصول بعض الأعمال وكذلك في البحوث والدراسات الميدانية في مجال علم اجتماع الأدب. ولكن هناك عملين يعالجان مسائل نظرية كما يظهر في عناوينها وهما :

- محمد عبد الحميد إبراهيم : لوسيان جولد مان والبنيوية التوليدية : مساهمة في علم اجتماع الأدب (مجلة المنار، عدد أكتوبر ١٩٨٩).
- علا مصطفى أنور : رؤى العالم في الأعمال الأدبية : دراسة لمنهج لوسيان جولدمان (المجلة الاجتماعية القومية، مجلد ٢، عدد ١، ١٩٩٠).

من هم الأدباء المصريون والعرب الذين تم تحليل أعمالهم في مجال علم اجتماع الأدب حتى نهاية القرن العشرين:

- أعمال إحسان عبد القدوس : حيث درس رشاد عبد الله الشامي صورة اليهودي في أعماله.
- يوسف القعيد : حيث درس صالح سليمان عبد العظيم التغيرات البنائية التي حدثت في المجتمع المصري منذ الستينات كما صورتها رواياته السياسية.
- نجيب محفوظ : حيث درس محمد علي إبراهيم أزمة البورجوازية الصغيرة في الحراك الاجتماعي كما ظهرت من خلال أعمال نجيب محفوظ، كما درست رباب أحمد مجاهد أوضاع المرأة المصرية كما ظهرت في شخصيات بعض رواياته.
- يوسف إدريس : حيث درس محمد عبد الحميد إبراهيم البناء (النظام) السياسي في المجتمع المصري في الفترة من ١٩٥٢–١٩٧٠ كما تجلى خلال أعماله الأدبية.
- عبد الرحمن الشرقاوي : حيث درس عبد الباسط محمد حسن الصراع الاجتماعي كما صوره الشرقاوي في رواية "الأرض".
- زينب فواز : حيث درس حلمي النمنم عندها نموذج المرأة المتحررة في روايتها "حسن العواقب"

الفن، اللغة والأدب في دراسات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع :

- **تعليق عام على حصاد القرن العشرين في مصر والعالم العربي:**

لقد استعرضنا فيما سبق تلك الأعمال التي وردت ملخصاتها في المجلدات الببليوجرافية التي أعدها مركز البحوث والدراسات الاجتماعية التابع لكلية الآداب جامعة القاهرة والتي شملت كل ما تم نشره في مجال علم الاجتماع خلال القرن العشرين وجميع الأعمال التي وردت في هذه المجلدات وهي التي نشرت باللغة العربية في مصر والعالم العربي. معنى هذا أن هذه الأعمال تعكس حالة الإنتاج العربي في مجال علم الاجتماع.

والأعمال التي قمنا بحصرها واستعراضها هنا هي التي تتعلق بمجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، حيث أن الفصل بينهما لم يكن مطلوبًا نظرًا لأن هذه الفروع من العلم الاجتماعي لم تكن واضحة ومازالت غير واضحة بالقدر الكافي لدى المؤسسات العلمية والتعليمية الجامعية في مصر والعالم العربي.

أن الجامعات المصرية الحالية تنتشر فيها أقسام علمية لتدريس علم الاجتماع تقع جميعها ضمن أقسام كليات الآداب التي يتم فيها تدريس تخصصات تصل إلى ١٥ تخصصاً تجمع بين اللغات وآدابها (اللغة العربية واللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية وبعض أقسام اللغات الشرقية) وبعض الدراسات الإنسانية الأخرى (مثل التاريخ والجغرافيا وعلم النفس وعلوم الآثار وعلوم الوثائق والمكتبات والمعلومات وعلوم المسرح، والدراسات الإسلامية والدراسات الفلسفية والدراسات السكانية) وفي المقابل توجد كليات ومعاهد عليا ومتوسطة لتعليم الخدمة الاجتماعية. وتعتبر تخصص "الخدمة الاجتماعية هو التخصص التطبيقي المقابل لتخصص علم الاجتماع. ورغم انتشار أقسام علم الاجتماع في غالبية الجامعات المصرية والعربية ضمن كليات الآداب، فإن تخصص "الأنثروبولوجيا" من النادر أن نجده في كليات الآداب. وفي حدود علمنا فإنه لا يوجد إلا في كلية الآداب جامعة الإسكندرية هذا بالإضافة إلى قسم الأنثروبولوجيا التابع لمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة. أما باقي الاهتمامات في مجال تخصص "الأنثروبولوجيا" فهي تتم من خلال أقسام علم الاجتماع. وهكذا فإن التعامل مع هذا التخصص العلمي وإنتاجه كجزء من علم الاجتماع لا يبدو غريبًا أو منافيًا للواقع.

لقد بلغت الأعمال المنشورة في الميدان الواسع للعلاقة بين الأدب والمجتمع حوالي (٧١) عملاً. ومع أن علم اجتماع الأدب فرع حديث نسبيًا بين فروع علم الاجتماع، فإن عدد الأعمال يعد متواضعًا بين إجمالي عدد الأعمال المنشورة في مجال علم الاجتماع ككل والتي تقارب عشرة آلاف عمل.

وعلى الطرف الثاني فإن هذا العدد لا يصب كله مباشرة في مجال علم اجتماع الأدب حيث أن هناك عدد ٤٨ عملاً فقط تدخل في مجاله.

ويمكن توزيع الأعمال المنشورة كما في البيان التالي :

	مجال الأنثروبولوجيا	علم الاجتماع
دراسات الفن	٢	٣
دراسات اللغة	٦	١١
دراسات الأدب	١	٤٨
المجموع	**٩**	**٦٢**

ومن الواضح أن غالبية الأعمال تقع في مجال علم اجتماع الأدب بشكل مباشر، وأن عددًا متواضعًا من الأعمال يقع في نطاق دراسة الفن من المنظور الاجتماعي أو الأنثروبولوجي.

أن غالبية الأعمال في الأدب والمجتمع جاءت في صورة مقالات، بينما جاءت الكتب والبحوث والرسائل العلمية كالماجستير والدكتوراه بأعداد محددة. وهذا معناه أن الكتابة في هذا المجال لم تنل حقها في القرن العشرين. وقد تحتاج إلى رصد ما تم نشره باللغة العربية في ميدان علم اجتماع الأدب والفن واللغة خلال السنوات التي مرت من القرن الواحد والعشرين لمعرفة ما إذا كان هذا الوضع قد تغير أم لا.

الكتابة في علم اجتماع الأدب إما أن تكون حول الظاهرة الأدبية عمومًا، وأما أن تكون تحليلاً لعدد محدد من الأعمال الأدبية. والطبيعة الغالبة على ما تم إنجازه من أعمال في مجال دراسة علم اجتماع الأدب، جاء في صورة قضايا تؤصل لهذا الفرع. أما الأعمال التي ركزت على دراسة وتحليل نصوص أدبية بعينها فهي قليلة. وقد أشرنا إلى تحليل رواية

العيب والحرام اللتين كتبهما يوسف إدريس، وتحليل أعمال للأديب نجيب محفوظ وخاصة ثلاثيته الروائية المعروفة : السكرية وبين القصرين وقصر الشوق، وكذلك رواية عبد الرحمن الشرقاوي وهي "الأرض"، وبعض أعمال إحسان عبد القدوس، ويوسف القعيد وزينب فواز وتوفيق الحكيم.

ومع أن دراسات علم اجتماع الأدب تهتم بتحليل كل أنواع الأدب سواء كان شعرًا أم قصة قصيرة أم رواية أم مسرحية ... إلخ. فإن "الرواية" كانت موضع اهتمام أكبر في تناول الباحثين في علم اجتماع. ومازالت الأنواع الأخرى من النصوص الأدبية كالأشعار والسير الشعبية والمسرحيات والحكم والنوادر والطرائف والأساطير والمواويل الشعبية والأغاني والأناشيد الوطنية وغيرها مجالات لم يتناولها باحثون متخصصون في علم الاجتماع حتى نهاية القرن العشرين. ونحتاج إلى تتبع دراسات علم الاجتماع وكتاباتهم منذ بداية القرن الواحد والعشرين في فرع علم اجتماع الأدب حتى نرصد الموضوعات والقضايا التي عالجوها خلال السنوات الخمسة عشر الأخيرة منذ بدء القرن الواحد والعشرين.

كيف يمكن التمييز بين الدراسات النقدية الأدبية ودراسات علم اجتماع الأدب؟

يمكن توضيح ذلك في النواحي التالية :

١- دراسات النقد الأدبي يقدمها في الأساس متخصصون في مجال الأدب، بينما دراسات علم اجتماع الأدب يقدمها متخصصون في علم الاجتماع.

٢- المتخصصون في دراسة الأدب والنقد الأدبي يركزون في الأساس على الدراسة الفنية للأعمال الأدبية أي مواصفات وقيمة النص الأدبي من حيث لغته وأسلوبه ونموذجه الفني وبلاغته وصوره التعبيرية البيانية اللغوية، وهذا ما يعرف بمنهج التحليل الداخلي للنص الأدبي، أما دارسوا علم اجتماع الأدب فيركزوا على تصوير الأدب للواقع الاجتماعي أو الكشف عن تأثير الواقع الاجتماعي والظروف الاجتماعية المحيطة بالأديب على إنتاجه الأدبي. ويطلق على منهج هذا النوع من الدراسة "منهج التحليل الخارجي".

٣- يميل المتخصصون في الدراسات النقدية الأدبية إلى التعامل مع النص أو النصوص وتحليلها عمومًا، أما المتخصص في علم الاجتماع الأدبي فيميل إلى استخدام منهج

في البحث العلمي الاجتماعي وبالتالي يتم تحديد خطوات إجرائية في جمع البيانات من خلال النص، مع استخدام أدوات لجمع أو تحليل البيانات. والمعروف أن الباحثين في علم اجتماع الأدب يستخدمون أساليب منهجية معروفة مثل : المسح الأدبي، وتحليل المضمون، ودراسة الحالة وتحليل الخطاب Discourse Analysis. وهنا قد يصمم الباحث : استمارة استبيان أو دليل تحليل مضمون أو دليل دراسة حالة أو دليل تحليل الخطاب ... إلخ.

٤- في الدراسات النقدية الأدبية لا يهتم الباحثون بتبني أو اختبار نظرية اجتماعية في تحليل وتفسير الأدب، وإنما قد يستفيدون بشكل عام من بعض الأفكار المطروحة في نظرية أو أخرى. أما دراسات علم اجتماع الأدب فإنها تنطلق – أو يجب أن تنطلق من أساس نظري أو رؤية نظرية ترى من خلالها النصوص أو الظواهر الأدبية. ويمتلئ تراث علم الاجتماع بالنظريات الاجتماعية مثل النظرية المادية التاريخية أو الماركسية، والنظرية البنائية الوظيفية، والنظرية التفاعلية الرمزية ونظرية الصورة المرآوية أو الانعكاسية، والنظرية البنيوية التكوينية أو التوليدية وغيرها، وهذه جميعها نظريات معروفة في علم الاجتماع، أي أنها تصورات عقلية حول طبيعة علاقة الظواهر الاجتماعية ببعضها، وهي بذلك تمثل أطر تصورية لتحليل العلاقة بين أي نصوص أو ظواهر أدبية وبين أية ظواهر أو أوضاع اجتماعية محيطة بها.

٥- في الدراسات النقدية الأدبية ينصب الاهتمام على النصوص الأدبية أو حتى على خصائص الكتابة عند أديب معين أو مدرسة أدبية معينة أو فترة زمنية معينة، وهكذا فإن النصوص أو الأعمال الأدبية تظل هي محور الدراسة الأساسي. أما في علم اجتماع الأدب فقد طور علم الاجتماع ما يمكن اعتباره في فروع علم اجتماع الأدب مثل علم اجتماع النص الأدبي، وعلم اجتماع الرواية وعلم اجتماع القراء أو الجمهور وعلم اجتماع المسرح ... إلخ. فالأدب بالنسبة للباحث في علم الاجتماع ليس مجرد النصوص الأدبية مجردة وإنما هناك ثلاثية تمثل مجال علم اجتماع الأدب تتضح فى: الاديب أو الكاتب، النص الأدبى، القراء أو الجمهور.